

الطهوح الى المثل الاعلى

(١) تعريف المثل الاعلى (٢) كيف يجب أن يكون ؟ (٣) قوامه وماده (٤) قيمته (٥) كيف و متى يتكون ؟ (٦) كيف يتركز في نفس صاحبه ؟ (٧) مميزات تحقيقه .

١- تعريف المثل الأعلى:

غير يسير على أن أصل إلى تعريف جامع مانع كما يقول أهل المنطق ، لأن المثل الأعلى : كالجمال ، والحب ، والاخلاق ، وما إلى ذلك ، يفهم الانسان معناها ويدرك مرماها ، وإن عز عليه أن يضعها تحت تعريف صحيح شامل .. ولكن هذا لا يمنع من أن أقرب معناه إلى الأذهان بكلمة موجزة :

لكل إنسان آمال تطمح إليها نفسه ، ونحن إلى تحقيقها مشاعره . وهذه الآمال التي تزع إليها النفس البشرية بفطرتها ، إذا اقترنت بالسعى لتحقيقها كانت الميزان الذي توزن به أعمال الانسان ، والمقياس الصحيح الذي تقاس به فعالة ، والحك الصادق الذي تحك به أخلاقه .. تنبئ بسمو نفسه أو نذالتها ، بنبل عواطفه أو خستها ، برصانة فكره أو ضعفه .

وتختلف هذه الآمال في الناس حسب اختلاف ثقافتهم ، وتباين شعورهم ، ونشئت ميولهم ، وتشعب زمانهم ومكانهم ، فالمرحوم « الشيخ محمد عبده » جعل مثله الذي أوقف عليه جهوده نشر الدين الاسلامي ، ورأى في ذلك نشرأ للفضائل الانسانية وإصلاحا لتفاسد المجتمع .. فلما جاء المصلح الخطير « قاسم أمين » جعل مثله الأعلى تحرير المرأة المصرية مما كانت فيه من ذلة وعبودية ، لتؤدي واجبها الذي فرضته عليها الحياة .. فلما جاء « سعد » جعل مثله الأعلى تحرير الامة من سلطان المستعمر ، لتأخذ نصيبها من الحرية التي وهبها الله الناس وهم أجنة في بطون أمهاتهم .

كل واحد منهم رأى ما وافق شعوره ، ولاءم فكره ، وطابق روح عصره .. أحس بأنه « انسان » ف شعر بأنه جاء إلى هذا العالم « كائناً لا قيمة له » ما لم يحمل « رسالة » يعمل على أدائها ، فهو يعتبر نفسه بين أفراد مجتمعه رسولاً أوحى إليه عواطفه برسالة ، وألهمه شعوره بواجبه ، وأملى عليه فكره عمله في حياته ، فأخذ يجاهد ليساهم في نشر الحق ، وإذاعة الخير العام . فالمثل الأعلى رسالة يحملها الانسان ويحملها غاية الحياة التي لا غاية وراءها ، ويسعى إلى تحقيقها بكل ما فيه من قوى ومسلكات .

٢- كيف يجب أن يكون؟

تبين من الأمثلة الثلاث التي سقتها آنفاً أنها تتجه نحو « الخير العام » ولمثل هذا الخير العام يتحتم أن تتجه المثل العليا ، فالذين انحصرت عندهم غاية الحياة في قوسهم - فلا يتطلعون إلا لما يفيد أشخاصهم ، ولا يزرعون إلا لما يعود بالنفع على ذواتهم - أولئك قوم هانت عليهم كرامتهم فقبلوا أن يعيشوا « حالة » على المجتمع ، يأخذون منه ولا يعطونه ، يمتصون من دمه (رضى أم كره) ثم لا تدفعهم إلى تعويضه نحوه ولا إباء .

قد يصح القول بأن « الخير العام » قد يتحقق على يد من لا يعمل إلا ليشبع شهوته ، ويرضى نهمته - كما سادت العالم مبادئ الحرية والاخاء والمساواة على يد رجل المجد « نابليون » - قد يصح هذا ، ولكننا نشد في هذه الكلمة « نفساً نزاعة للكمال » لا تنفع دون أن تجعل « الخير العام » مثلها الأعلى ، وغايتها القصوى التي تجاهد في سبيلها وتناضل لتحقيقها .

٣- قوامه ومداه :

ولكن هذا الخير العام لا يتحقق ما لم تكن التوضيحية قوامه ، فلنحدد مداه بكلمة موجزة أقبسها من محاضرة لأستاذي الدكتور « منصور فهمي » قال ما معناه :

إن مدى التوضيحية التي يستلزمها المثل الأعلى هو فوق ما توجهه العدالة ، أى أن حدود الواجب الخلقى أوسع من حدود الواجب العدلى ، ولنضرب لهذا مثلاً يوضح ما نرمى إليه . إذا رأيت غريقاً قد أشرف على الهلاك ، واعتقدت أن في استطاعتك نجاته ، ولكنك ذكرت أنك مريض بمرض يودي بحياتك ، لو أنك خلعت عنك ملابسك ، وعرضت نفسك للبرد ، فأيقنت أن واحداً منك هالك لا محالة ، فقارنت في هذه اللحظة بين نفسك والغريق ، وحاولت أن تكون في حركك مجرداً من الأثرة ، خلواً من الأنانية ، فوجدت قيمتك لمجتمعك ووطنك وذويك لا تزيد ولا تنقص عن قيمته لهؤلاء ، وتبينت هذا التكافؤ التام بينك وبينه ، فإذا يكون موقفك ..؟ ألدعه يغرق وتنجو بنفسك . ؟ أم تنقذه وتموت في سبيله . ؟ إن فعلت الأولى قلنا لك إنك فعلت ما تقتضيه العدالة ، ولكنك لم تفعل ما يوجب الخلق ، فإن صاحب المثل الأعلى الخلقى يندفع إلى التوضيحية دون أن يجنح فكره إلى « فوائد أو منافع » وهو حين يضحي « يعطى » حياته إلى من هو في حاجة إليها ، والمعطى أشرف من الآخذ ، ولذلك قيل إن الله تعالى يعطى ولا يأخذ . فالتوضيحية بذلك تشبه بالاله عز وجل . وكما أن الله تعالى لا ينقص بالاعطاء شيئاً فكذلك المضحي ، مثله مثل الصورة الجميلة ينظر إليها الإنسان فتعطيه المتعة واللذة ، فإذا أطال فيها نظره ، وأدام إليها بصره ، ازداد بهذا متعة ولذة ، ولم تنقص الصورة بهذا شيئاً ، بل تزداد وتزداد في نظره جمالا . كذلك المضحي حين يضحي في سبيل من يكافئه تماماً يكون قد فعل « جميلاً » حتمته الاخلاق . والجميل في رأى

الجماليين يستمد من نفسه ، وهو حين يضحى في سبيل من هو « أقل » منه قيمة لمجتمعه ووطنه وذويه ، يكون قد فعل جيلاً أربى على جميله الأول ، ويكون بذلك قد ازداد ولم ينقص شيئاً . ازداد سمو نفس ، وكرم خلق ، وخلود ذكر ، وشرف عنصر ، وجلال قدر .

فإذا كان هذا ما يحتمه المثل الأعلى على صاحبه إزاء فرد واحد - هو الفريق مثلاً - فإذا يحتمه علينا مثلنا الذي نشده هنا ؟ وهو يرمى إلى الجهاد في سبيل أمة أو جيل أو الإنسانية بأسرها ؟ إن غايته لتكسح كل ما يقف في وجهها هان أو عز .

٤- قيمته :

قيمه للجماعة لا يعوزها بيان . ولل فرد تنحصر في أنها تجعل له طابعاً خاصاً يميزه عن غيره من سائر الناس ، فلا تصبح حياته تكراراً لحياة الأفراد التي سبقته - شأنه في هذا شأن الحيوان الاعجم - بل يمسى صورة جديدة لم تألفها الإنسانية . ونظرة واحدة إلى مصلح من أولئك الذين حملوا رسالة إلى مجتمعهم تفصح عما نقول ، فحياة « فريد » أو « قاسم » أو « الافغانى » أو من إليهم ، لم تكن صورة من صور الجماعة التي مروا بها .

٥- كيف ومتى يكون ؟ :

على أن الانسان لا يستطيع أن يكون صاحب مثل أعلى في الحياة ، ما لم يفكر في تكوين هذا المثل الأعلى ، وهو لا يستطيع أن يفكر وقت عمله ، لأن وقت العمل مشغول بالتفكير في العمل نفسه ، بل يمكنه ابتكار رسالته « وقت الفراغ من العمل » . قال الدكتور هيكل - صاحب هذا الرأي - « إن الحقائق والنظريات والآراء التي تلقى لنا أثناء دراساتنا أو أثناء مطالعاتنا ، لا يمكن أن تصبح حقائق بالنسبة لنا إلا بعد أن تمتحنها ونقلبها ونميز أوجه القوة وأوجه الضعف فيها ، ونؤمن بما يلهم الايمان به منها ، ونفصل ما يهدينا بحثنا إلى زيفه عنها - إلى هذا الحين لا تكون الحقائق حقائق بالنسبة لنا ، وإنما تكون سبل هداية أرشدنا إليها غيرها ، حتى نصل إلى الغاية إذا نحن حاولنا هذا الوصول باستثمار أوقات فراغنا في التأمل والتمحيص »

ولما كان التفكير غريزة من الفرائز البشرية - والفرائز لا يمكن محوها وإن أمكن تحويل مجراها - كانت محاولة السكف عنه وقت الفراغ محاولة لا تجدى ولا تفيد ، فلتسأم إذن بهذه الغريزة ، فنفكر وقت فراغنا في النظريات والآراء التي أوحى اليها غيرها : في التقاليد التي يلبسها علينا العرف العام ، وفي العادات التي نسير عليها دون وعى منا .. فإذا فعلنا هذا بدأنا نحقق ، ولاجأ أمامنا اطل ، فنتطوع أن نتخذ - من هذا الذي تبيناه ونحقق على غيرنا - مثلاً الأعلى الذي نجعله رسالتنا التي نسعى إلى

التي في تطور العالم إلى الكمال .

ونكون بهذا قد « نجونا » من الشر الذي كان ينتظرنا لو أننا فكرنا وقت فراغنا فيما لا طائل تحته . وأفدنا في الوقت نفسه ، وعملنا على أن نقيد المجتمع الذي نمتص من دمه ، وبهذا نكون قد سمونا بكرامتنا المعنوية ، وقدسنا طبيعتنا البشرية ..

٦- كيف يتركز في نفس صاحبه ؟ :

والكن الانسان قد يفكر في رأى ، فلا يلبث حتى يهتدى الى كنهه ، ويصل إلى حقيقة ويراه حرياً بأن يكون « رسالة إنسان » ثم لا يعمل على نشره ولا يجاهد في سبيله ، ولا يتاضل من أجله ، فما هي الوسيلة السهلة المضمونة التي تقود الانسان إلى « ساحة الجهاد » ليناضل في سبيل ما يرى .. ؟

فان قال قائل إن الطريقة لذلك هي أن « يتعمق » الانسان بالتفكير فيما بدا له ، قلت إن هذا ليس في مقدور كل إنسان ، ولهذا آثرت أن أجيء بطريقة سهلة يسيرة قد اختطها لنا علم النفس الحديث ، وهي « أن يغوص الانسان بفكرته من عالم العقل الواعي إلى عالم العقل الباطن » وسأيسر هذا الرأي :

تمر بالانسان لحظات يصيبه فيها نصب يمتد إلى عقله فيلجئه إلى الراحة ، وبذلك يسمى الانسان بلا رقيب ، فيفكر كما يفكر الملتاثون والمجانين ، وأظهر ما تكون هذه الظاهرة حين يستلقى الانسان على السرير متأهباً للنوم ، تتجهم في ذهنه خواطر ، ثم تنطلق في غير وعي . وتنساب دون رقيب من العقل ، فتراه يتصور نفسه قائداً فذاً قد هب للذود عن أمته ، فجمع جيشاً جراراً ثم قاده إلى ساحة الحرب حيث طعن العدو الطعنة النجلاء ، وعاد إلى وطنه مكلاً بآ كليل الفوز والفخار ، أو يتصور نفسه مصلاً خطيراً قد كشف الطريق إلى سعادة الناس فأكبروا منه ما فعل ووضعوه موضع التجلة والاحترام ... هذه الخواطر التي تنساب في ذهننا دون رقيب من عقلنا ، تكمن في مجال « العقل الباطن » أو « اللا شعور » كما يسميه البعض . ويقول هؤلاء العلماء : إن الانسان إذا ردد فكرة ما - خيراً كانت أم شراً - في هذه الساعة التي يسترخى فيها جثمانه ، وتسكن أوصاله ، وتهدأ أعصابه ، وينام عقله - فان هذه الفكرة تعوض إلى مجال اللا شعور فتقوم صاحبا إلى العمل بها ، أى تستحيل من فكرة بعلمها إلى عقيدة يؤمن بها .

فالذى يتصور نفسه عظيماً أيما ، ويردد هذا التصور في تلك اللحظات التي أسلفت الكلام عليها ، ينتهى تصوره بأن تدب العظمة في نفسه ، وتتمرى إلى شعوره ، فإذا هو عظيم أى في معادلاته للناس .. !

معنى هذا أن الفكرة قد انتقلت بهذه الطريقة التي يسمونها الاستهواء الذاتى - من

ساحة المعرفة السطحية إلى ساحة العقيدة والإيمان ، فلما حدث هذا طاوعها الجسم فخضع لها . وسار في الطريق الذي رسمته له . . . وذلك لأن الجسم في رأيهم خاضع تمام الخضوع لا لمعارف الانسان أو ثقافته أو معلوماته ، بل لعقيدته وإيمانه . . . تلك العقيدة التي خلقت من العرب في جزيرتهم فرساناً بواسل ، أُرهب ذكركم الاقوياء من معاصريهم ، وأخرج صدورهم وأنقض ظهورهم . .

وهذه الطريقة سيبل مضمون لتكيز المثل الأعلى في نفوسنا . ذلك أننا متى فرغنا من الوصول إليه . عن طريق التفكير وقت الفراغ كما قلنا — عمدنا إلى تردادده في اللحظات التي وصفناها قبلاً ، فلا يلبس حتى يمسى عقيدة تبدو مظاهرها في أقوالنا وأفعالنا ، نذود عنها بهجتنا ونقدسها بأرواحنا . .

٧- مبادئ تحقيقه :

قد يتحكر الانسان وقت فراغه حتى يهتدى إلى مثل أعلى ، ثم يغوص به من ساحة العقل الواعي الى ساحة العقل الباطن ، ويكون بذلك متاهاً للجهاد في سبيله ، ولكنه قد يحس في نفسه بنقص جوهرى يحول دونه والجهاد ، فإن العناصر التي يجب توافرها في صاحب المثل الأعلى حتى يتمكن من أن يصمد للجهاد في سبيل رسالته ، فيحققها أو يموت شهيداً . . ؟ هذه العناصر أربعة ، هي أن يكون : قوى الجسم ، سليم العقل ، قوي الخلق ، مرح الروح . بل إن هذه العناصر الأربعة يجب توافرها في الانسان قبل تكوين المثل الأعلى أو تركيزه . أما الجسم القوى فلأن المريض الذي تؤذيه أسقامه ، وتؤله أوجاعه ، يكون مشوش الذهن مضطرب التفكير ، فإذا ابتكر مثلاً أعلى جاء مريضاً عليه مثله ، وجنح ذهنه نحو القوة والقسوة والجبروت ، لأن الصحة كما يقولون تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى وهذا ما حدث تماماً للفيلسوف الالماني « نيتشه » صاحب النظرية التي أسماها « برناردشو » السيرمان أى الانسان الأعلى . وأكثر من هذا أن صاحب الجسم السقيم لا يستطيع أن يصمد في جهاده ، ويتحمل مشاق النفس والأهوال . .

وسبل تقوية الجسم : الاعتدال من ناحية ، والرياضة البدنية من ناحية أخرى فلا يجب أن يجهد الانسان جسمه بعمل ، ولا يهبط عقله بفكر ما ، ولا يرهق قلبه بعاطفة ما . وأما الرياضة البدنية فلا أحسب القارىء الكريم يعوزه بيان ينصح له عن حاجة الجسم المادية إليها . . . وأما العقل السليم فلا أن المثل الأعلى عاطفة في نفس الانسان نحو السكال لا تنضج بغير التفكير . ولأن السقيم في تفكيره يتعذر عليه أن يتحكر من الخطط ما يكفل له النصر على جهل الجماهير . .

وسبل تقوية العقل : الاطلاع على آراء الغير من كتاب وفلاسفة وأدباء ، والاستعانة

بهذه الثقافة الواسعة على « التجارب الشخصية » التي لا بد منها لتقويم العقل .
أما الخلق القويم فلائن الفاسد في خلقه إن استطاع أن يعلن مثلاً أعلى يتجه نحو الخير
العام ، عجز عن الجهاد في سبيله ، واستعصى عليه تحقيقه .

وسبيل تقويم الخلق هو الماران المستمر - كما رأى أرسطو من قبل

أما الروح المرح فلائن رأى العناصر الثلاثة السابقة الذ كر قد توافرت في قوم ، وكانوا
رغم هذا برمين بحياتهم ، نافرين منها . وعندى أن الذين ألقوا الشكوى من الزمان ، والتبرم
بالقدر ، والتأفف من الحياة ، لا ينشرون في الحياة إلا تثبيط الهمم ، وإخماد العزائم ، وما
لمثل هذا يتجه الخبر العام . فيجب إذن أن يكلف صاحب المثل الأعلى بحياته ، وأن يقبل
عليها حباً لها ، شغوقاً بها ، ليتخذ من آلام الجهاد لذة ومسرة ، فلا يثنى عن عزمه حتى النفس
الآخر . قد يقول قائل : كيف يكون الانسان عاقلاً ومرح الروح في وقت واحد ؟ أليس
يقول المتنبي :

ذو العقل يشقى في النعم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم ؟

ولكن هذه النظرة في اعتقادي مريضة ، فإن الشطرة الاولى مردود على ما جاء فيها بأن
العقلاء ليسوا جميعاً أشقياء وبأن الشقاء والسعادة يجيئان غالباً عن طريق الاعصاب
والشعور ، لا عن طريق العقل . وأما الشطرة الثانية فردود عليها بأن الجاهل ليس سعيداً وإن
لم يكن شقيماً . . . ليس شقيماً لأنه لا يشعر بشقاوته ، وليس سعيداً لأنه لا يشعر بسعادته ،
فثله يقرب من مثل الطفل لا يشعر بسعادته وإن كان سعيداً . . . وعلى هذا فقد يجتمع العقل
وحب الحياة . . .

فاذا كان صاحب المثل الأعلى قوى الجسم ، سليم العقل ، قويم الخلق ، مرح الروح ،
تمكن من أداء رسالته ، واستطاع أن يصمد للنضال في رصانة وقوة . .

ذلك مثلنا الأعلى الذي نشده ، والذي نرجو أن يتردد على كل لسان ، وأن يحقق به
كل جنان ، ليملي على صاحبه رسالته في الحياة ، ويخطط له واجبه الواسع المدى ، ويهز فيه
الشعور بكرامته كإنسان رأى « إنسانيته » وفقاً على « رسالته » فحملها وراح يعدو بها في
ساحة الجهاد ، حتى يضعها لبنة قوية رصينة في بناء مجتمعه .

نوفيق الطويل